

النقد البلاغي للشعر العربي القديم

Rhetorical criticism of ancient Arabic poetry

أحمد حنة¹Ahmedhana599@gmail.com

جامعة تيسمسيلت

تاريخ الاستلام: 2026/01/15 تاريخ القبول: 2026/05/06 تاريخ النشر: 2026/06/01

ملخص:

إذا كان الشعر أسمى مراتب القول في آداب الأمم وأعلاها في ضروب الإبداع الكلامي، فإنّ البلاغة بما تحويه من مضامين جمالية وقيم تعبيرية هي الرافد الذي ينهل منه نقاد الشعر أحكامهم على الشعر العربي من خلال استنباط الملامح البلاغية في الشعر لفظاً ومعنى، شكلاً ومضموناً.

فالقضايا الشعرية التي يهتم بها النقد الأدبي ذات جذور موعلة في أعماق تاريخ النقد الأدبي، وذلك منذ أقدم عصوره عند كبار مفكري اليونان القدماء، وعند الرومان الذين ورثوا حضارتهم الفكرية، ثم في العصور الوسطى، إلى أن انتشرت تلك الأفكار النقدية في العصور الحديثة ونشطت في بيئات الأدب عند جميع الأمم المتحضرة التي عرفت الفن الأدبي، ومنحت القدرة على تذوقه وبحث علماؤها ومفكروها عن مظاهر الإبداع فيه، وأسرار تأثيره في العقول والقلوب.

كلمات مفتاحية: البلاغة، النقد الأدبي، الشعر العربي، التذوق، التأثير.

Abstract

If poetry is the highest level of speech in the literature of nations and the highest in all forms of verbal creativity, then eloquence, with its aesthetic contents and expressive values, is the tributary from which poetry critics draw their judgments on Arab poetry by deducing the rhetorical features of poetry in terms of word and meaning, form and content. The poetic issues that literary criticism is concerned with have roots that go deep into the history of literary criticism, since its earliest times among the great thinkers of ancient Greece, and among the Romans who inherited their intellectual civilization, then in the Middle Ages, until those critical ideas spread in modern times and became active in The environments of literature among all civilized nations that knew literary art and were given the ability to appreciate it, and whose scholars and thinkers searched for aspects of creativity in it and the secrets of its influence on minds and hearts.

Keywords: Rhetoric; literary criticism; Arabic poetry; taste; influence.

*المؤلف المرسل: أحمد حنة

1. مقدمة

تعدّ البلاغة باعتبارها فناً من الفنون اللغوية رافدا مهماً من روافد النقد للشعر القديم، وقد تجلّى ذلك في كتب الأولين كالبيان والتبيين للجاحظ ونقد الشعر لابن قدامة وسرّ الفصاحة لابن سنان الخفاجي ومنهاج البلغاء وسراج الأدباء لابن حازم القرطاجني الذي يعدّ بحق فيلسوف النقاد، وقد تعدّدت الرؤى النقدية للشعر في جانبها البلاغي من حيث النظر للمعاني كما هو الحال في شعر المتنبي وأبي العلاء وأبي تمام، والنظر للألفاظ وحسن سبكها كما هو الحال في شعر البحتري وامرئ القيس، أو النظر للبديع كما هو الحال في شعر أبي تمام وأبي نواس وصرع الغواني وابن المعتز.

وقد تمحور هذا البحث في هذا الموضوع بالذات انطلاقاً من إشكاليات مختلفة من قبيل :

ما طبيعة النظرة البلاغية للشعر القديم ؟ .

وقبل ذلك ما البلاغة وما ماهيتها ؟ .

ثمّ ما هي الاتجاهات التي تمثّلها ؟ .

فكانت محاولات الإجابة عن ذلك بعرض الآراء المختلفة ومن ثمّ الوصول إلى نتائج عامّة عبر خاتمة البحث .

ماهية البلاغة

كثيراً ما تأتي البلاغة في سياق مقارب للفصاحة إلا أنّ بينهما فرقاً واضحاً من خلال اعتماد الأولى على حشد الصّور البلاغية المختلفة من بيان وبديع ومعان واعتماد الثانية على الأداء المعبر والموحي لكلّ ذلك، فالأولى مجالها القلم في الغالب والثانية وسيلتها الصّوت، ولكلّ منها فضيلة وغاية في الكتابة والكلام كقول الشّاعر:

لا تطلبنّ بآلة لك حجة * قلم البليغ بغير حظّ مغزل

وقد نقل لنا التراث الكثير من الآراء التي عبّرت عن المعنى اللغوي للبلاغة فربطها بعضهم بما تجيش به النّفس من أحاسيس، وربطها بعضهم بالإيجاز وربطها آخرون بعدم الوقوع في الخطأ، وكتاب البيان والتبيين خير من نقل لنا هذه الآراء التي لم تستقرّ على مفهوم واحد يتفق عليه العلماء وإنّما كان مفهوم البلاغة ينبني فيها على

انطباعات نفسية يعبر بها كل شخص عن توجهاته إلا أن المفهوم الذي غلب على المصطلح هو الوصول والانتها، وهو المفهوم الذي دخل على علم البلاغة قبل أن يستقر على ما استقر عليه فيما بعد (الرّبيعي، 2013، صفحة 24).

وكيف لا يعنى البلغاء والبلاغيون بها مثل هذه العناية، وهي بذرة البحث البلاغي، والأساس الذي يستند إليه، فلا غرابة إن قيلت فيها أقوال وأقوال على تعاقب الأزمان والأجيال، حتى استوت علوم البلاغة، واستقرت مصطلحاتها عند متأخري البلاغيين، الذين ورثوا التراث البلاغي وخلفوه لنا بعد أن أشبعوه بحثا وتدقيقا، وانتهوا به إلى ما انتهوا من كثرة موضوعاته وتنوعها، وافتنان بتفريع فروعها، وشغف بحدودها وتعريفاتها، وإشارة إلى أصولها اللغوية، وتنافس في اختصار موادها وشرحها، والتعليق عليها، وتدوين الحواشي على تلك الشروح والتعليقات وبذل ما بذل من جهد ووقت في ذلك كله (فياض، 1979، صفحة 07).

وبالبلغة العربية القديمة تقوم في الغالب على جدلية ثنائية بين الشكل والمضمون، وهذه الثنائية فرّعت مباحثها إلى اتجاهات : منها ما يهتم بالشكل أو بالبناء اللفظي وما يتصل به من تناول اللفظة المفردة، وما يتصل به من بناء يتناول الجملة، أو ما هو في حكم الجملة، ومنها ما يهتم بصلة اللفظ بمعناه، وما يترتب عن ذلك من خروج هذا المعنى عن الحدود التي وضعت له، أو بمعنى لآخر انحراف المعنى عن اللفظ، ثم يمتد هذا الاهتمام ليتناول معنى الجملة وصلتها بما قبلها وما بعدها كما في مباحث الفصل والوصل (عبدالمطلب، 1994، صفحة 258).

وبالبلاغيون عندما يتناولون الكلام في التراكيب إنما يقصدون ما نتج منها من وعي وإدراك، وذلك لا يكون إلا ممن أوتي مقدرة بلاغية معينة، لأن ما ينتج من صياغة في المستوى الإخباري إنما يتم في صورة عفوية بحيث يأتي وما يتفق .

وخاصية التركيب منظور إليها من جانبين : المبدع باعتباره مصدر هذه الخواص التركيبية – وإن لم يلق هذا المبدع ما يستحقه من أهميّة – ثم المتلقي من خلال قيامه بعملية الفهم والمعرفة (عبدالمطلب، 1994، صفحة 261).

وهنا يظهر الجانب البلاغي أيضا من خلال تركيزه على حال المخاطب في تلقي الكلام حيث يتجلى ذلك في باب أضرب الخبر الذي يندرج ضمن علم المعاني .

و يميل الكثير إلى اعتبار الأسلوبية الحديثة بلاغة معاصرة، بحيث أنّهما وجهان لعملة واحدة، لكن البلاغة علم ذا أرومة عريقة في العربية، كانت نشأته تلبية لحاجة ملحة، وتوجّه أصيل في الثقافة العربية الإسلامية، وقد ظلّت البلاغة العربية وفيّة للغاية التي انتدبت لتحقيقها، حتّى حين فتحت أبواب الثقافة الإسلامية للإفادة من علوم الأوائل، ولم تفتقد هذه الثقافة يوما معيارها الضابط لجميع توجّهاتها، والحاكم على جميع اختياراتها فيما تأخذ وما تدع .

أمّا الأسلوبيات فلا تزال باتّجاهاتها وتصوراتها ذات الصّلة الوثيقة باللسانيّات الحديثة غريبة وافدة علينا، وما زال أهلها والمقتنعون بجودها يبحثون لها عن دور تقوم به في إعادة صياغة النّظرة العربية المعاصرة إلى دراسة النّصّ الأدبي، ومن هنا تأتي الصّعوبة في صياغة العلاقة بين علم رسا ورسخ، وآخر لا يزال يتلمّس طريقه إلى ثقافتنا غريبا حذرا (مصلوح، 2003، صفحة 22).

و من مذهب الجاحظ في اللفظ والمعنى، إلى مذهب البديع عند ابن المعتزّ، إلى مذهب ابن قدامة في تحديد أصول النّقد، إلى مذهب الأمدي في عمود الشّعر إلى مذهب القاضي الجرجاني في الاحتكام إلى القيم الفنيّة التّراثيّة، إلى مذهب الباقلاني في تحديد أسباب إعجاز القرآن الكريم .

من كلّ ذلك وغيره من مذاهب النّحويّين واللّغويّين، صاغ عبد القاهر فلسفته البلاغيّة، والتي تدور حول خصائص الأسلوب وبلاغته (خفاجي، 1992، صفحة 06).

وقد ظهرت مفاهيم مختلفة للبلاغة في سياق انطباعي وذوقي معا منها أنّ « البلاغة إيجاز » وكأنّها بذلك تقابل الإطناب الذي هو اللفظ الكثير للمعنى القليل، بل وحتّى في مقابل المساواة الذي هو اللفظ الكثير للمعنى الكثير أو اللفظ القليل للمعنى القليل .

و من أعجب تعاريف البلاغة هو ما قيل عنها أنّها التي إذا سمعها الشّخص العادي ظنّ أنّه يحسن مثلها أو حتّى إن قرأها، فيما يخيّل إليه أنّه سهل وليس بسهل، وإنّما هو السّهل الممتنع كما هو معلوم .

اتجاهات البلاغة :

لم تكن البلاغة ذات منحنى ثابت في عرف البلاغيين، بل إنَّها رسمت طريقها انطلاقاً من الخلفيات التي يستند عليها علماء هذا الفنّ، فالحال أشبه بالمدارس النحويّة، وخاصّة مدرسة البصرة والكوفة، التي يفرّقها الطابع العامّ للبحث النحويّ إذ أنّ (البصريّين أهل دراية والكوفيّين أهل رواية) كما يقال .

إنّ الوقوف على إعجاز القرآن وإدراك نظمته واجتلاء أسرارها لا يقوم إلا على تفهّم البلاغة ومعرفة الفصاحة، وبهذا يتّضح جليّاً أنّ المفسّرين وأصحاب الدّراسات القرآنيّة كان لهم نصيب كبير في نشأة البلاغة والعمل على تطويرها بما قدّموه من أبحاث بلاغيّة للتّوصّل بها إلى حقيقة الإعجاز، إذ نجد طوائف متعدّدة من لغويّين ومتكلّمين وأدباء ونقّاد ومفسّرين تظاهرت مذاهمهم على إبراز ملاحظات بلاغيّة مفيدة، ووضع إجابة واضحة المعالم عن الفصاحة والبلاغة والبيان والأسلوب والإعجاز (قرل، 2013، صفحة 284).

فالحقيقة الكبرى التي ينبغي التّفطّن إليها هي أنّ علوم البلاغة العربيّة، أو إن شئنا قلنا : مقاييس الجمال البلاغي، أو بعبارة ثالثة : صور التعبير الأدبي مستمدّة من النّصّ القرآني، ثمّ من بعد من روائع النّصوص الأدبيّة .
و من هنا تكون للنّصّ الأدبي الأهميّة القصوى، أمّا القاعدة أو المقياس، أو صورة التّعبير، أو ما اصطلح على تسميته بالمصطلحات البلاغيّة، فما جاءت إلا لتعين على تذوّق الجمال في النّصوص الأدبيّة، إنّ المصطلح البلاغي رائد لاستكشاف الجمال الأدبي (الجويني، 1985، صفحة 05).

وظهرت علوم البلاغة عند قدماء اليونان والرومان بوصفها مجموعة قواعد مساعدة على جعل الكلام قادراً على إقناع سامعه، لذلك اقترنت عندهم بعلم الخطابة الذي قسّموه أقساماً ثلاثة : الخطابة التّداوليّة، وهي التي يراد بها إقناع السّامعين بتفضيل منهج على غيره في العمل والرّأي، والخطابة القضائيّة التي تشتمل على وسائل الاتّهام والدّفاع أمام القضاء، والخطابة البيانيّة، وهي تلك التي تشمل التّقريض والتّقريع، وقد أفاد المسلمون الدّين يشار إلى تأثرهم ببلاغة أرسطو، من ملاحظات اليونان البلاغيّة، لكي يستثمروها في الدّفاع عن القرآن الكريم أمام خصومه، وفي توضيح قضيّة إعجازه، وإقناع النّاس بها (الكوّاز، 2006، الصفحات 32-33).

ولما كانت الثقافة العربية القديمة تقوم على المشافهة، ولم تتعمق فيها أسس التفكير الكتابي، فقد اتجهت دلالة البلاغة فيها إلى الكلام، لا إلى الكتابة، إلى لغة التخاطب لا إلى لغة الكتابة، ويجمع الجاحظ كثيرا من التعريفات تنطلق كلها من كون البلاغة في التعبير الشفاهي لا الكتابي .

وتتخذ البلاغة هدفا دينيا عند المتكلمين المعتزلة، فتكون وسيلة إقناع، وأداة هداية، يراد بها (تخير اللفظ في حسن الإفهام)، ليكون الكلام البليغ على هذا المفهوم، فصل الخطاب، أي الكلام الذي لا يصلح غيره في مكانه (الكواز، 2006، الصفحات 11-12).

وأخذت تنشط في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري بيئة جديدة، عنيت بشؤون البلاغة، هي بيئة المتفلسفة، وكان ممّا ساعد على ظهورها كثرة ما نقل عن اليونان واحتفال العرب بفلسفتهم وكلّ ما خلفوه في شؤون الفكر من منطق وغير منطق، وبذلك وجدت طبقة كبيرة من المتفلسفة، وكانوا طائفتين : طائفة من نقلة السريان ومترجمهم، وأكثرهم من النصارى، وطائفة من العرب أكبوا على قراءة المترجمات والمصنّفات اليونانية، وأدّى التفلسف بكثيرين من هذه الطبقة إلى أن يتخذوا من الفلسفة اليونانية ومعايير اليونان البلاغية أساسا في تقويم نماذج الأدب العربي وتقدير قيمها البيانية، ممّا جعل البحري يشكو منهم شكواه المشهورة، إذ يقول :

كلّفتمونا حدود منطقكم ** والشعر يغني عن صدقه كذبه

ولم يكن ذو القروح يلجج بال ** منطق ما نوعه وما سببه

فالشعر في رأي البحري لا يفتقر إلى منطق ولا إلى فلسفة على نحو ما تدّعي هذه الطبقة التي عاصرت من المتفلسفة، ويسوق دليلا على قوله امرأ القيس ذا القروح، فإنّه لم يلقّن فلسفة ولا منطقا ولا سمع بهما، وشعره لا يزال يروع الناس في عصر هؤلاء المتفلسفة روعة بعيدة (ضيف، 1995، صفحة 24).

كما اهتمّ بالبلاغة أيضا جماعة الأدباء وأبرزهم ابن المعتز المتوفى سنة 296 هـ في كتابه (البديع)، حيث يضمّ ألوان البلاغة المختلفة، ولم يفرد له كتابا قائما بذاته قبل كتاب ابن المعتز وإنما كانت أبواب البديع موزّعة، منشورة في كتاب السابقين مثل ابن قتيبة والمبرد والجاحظ ولم يجمعهما كتاب واحد .

وكذلك أبو هلال العسكري المتوفى سنة 395 هـ في كتابه الصناعتين أي الكتابة والشعر استعان في تأليفه بكل ما سبقه في الكتابة عن هذا الموضوع، من أمثال ابن سلام، والجاحظ وابن قتيبة، وابن المعتز، وقدامة، والآمدي، والقاضي الجرجاني، استعان هؤلاء جميعاً ثم قدّم لنا خلاصة يمكن القول أنّها تبسّط الكتب التي ألّفت في هذا الفن من قبل .

و يتّضح من خلال ذلك أنّ البلاغة لها روافد متباينة منها ما يعتمد على النصّ القرآني والحديث النبويّ ومنها ما يعتمد على كلام العرب شعرا ونثرا، ومنا ما يتّكئ على جانب المنطق والفلسفة التي شغف بها قدماء اليونان وأدخلوها في مباحثهم البلاغية قديماً ثمّ تأثّر بها أهل الكلام من فلاسفة العرب .

النّظرة البلاغية للشّعر

إذا كانت مباحث البلاغة لا تخلو من الشواهد القرآنية المعتبرة، فإنّها تعتمد أيضاً على الشّعر العربي كرافد مهمّ يدعم القواعد المختلفة المتعلقة بأبوابها الثلاثة من معان وبيان وبديع، بل إنّ تعلّم البلاغة يستدعي استحضار الشّعر العربي دوماً مع فهمه وحفظه أيضاً، خاصّة حين ابتكار الشعراء للمعاني التي تحمل لونا بلاغيا معيناً كما هو الحال عند المتنبي، إذ رثاه أحدهم بقوله أنّه نبيّ المعاني :

كان من نفسه الكبيرة في ** جيش ذي كبرياء وذي سلطان

هو في شعره نبيّ لكن ** ظهرت معجزاته في المعاني

ونظرة البلاغة للشّعر هي نظرة أقرب إلى المثاليّة من حيث الكلمات فيه تكون رشيقة ذات جرس خاص، تحكي صوت الطّبيعة التي تصفها، والألوان التي تصوّرها، والجمل فيه موجزة مقسّمة حرّة في تكوين عناصرها تخضع لشيئين : الصّحة النّحويّة، والموسيقى الأدبيّة، وعن ذلك نشأت البحور في الشّعر، والقافية فيه وفي النثر، ومن ذلك ينشأ الأسلوب المثالي الذي يختصر في هذه الكلمة القديمة : ائتلاف اللفظ والمعنى (الشّايب، 1991، صفحة 85).

ومن أهمّ الجوانب التي تنظر لها البلاغة في الشّعر هي جانب البيان، ذلك أنّ هذا اللون من الدّراسة يستوعب الشّعر والأدب في العصور كلّها، ويضع بين يدي الباحثين كلّ تشبيهات المتنبي وأبي العلاء وجريرو بشار والخوارزمي

وابن المقفع وغيرهم من أهل البيان، وكذلك تصف لنا مجازات كلّ شاعر، وكنياته، لأنّ هذه الفنون من جوهر الأدب والشعر، أو هي الأقطاب التي تدور عليها المعاني كما يقول عبد القاهر (موسى، 1991، صفحة 129).

وقد شرح الجاحظ غايات الشعر عامّة، وصنّف نفسه من رواة الجوهر من الكلام، وجاءت شواهد الشعرية في " البيان والتبيين " اسما على مسعى، لأنّها سكبت سكبا أو أفرغت إفراغا وكأنتها لم تصغ إلا لتكون الشاهد الرفيع والمثل الأوحد على غاياته، ولم يخل " البيان " من استطرادات ولفترات غنية، وضعت أيضا لغاية، هي تثقيف القارئ وتعليمه وتسليته .

كما حقّق الشعر معظم غايات الجاحظ في البيان، بعد أن تكلم عن تاريخه وفوائده وأنواعه، وتعامل مع الشعراء تعامل الصائغ مع ذهبه، ففضّل الشاعر المطبوع ونقد المصنوع، ثمّ صنّفهم طبقات وبيّن أهمّيتهم في المجتمع العربي، انتقى نخبة النخبة، حتّى يمثّل بأقوالهم على غاياته وبذلك يكون قد حقّق رسالته ليأتي بيانه في " البيان " بلاغة صرفة (صباغ، 1998، الصفحات 236-237).

كما تكمن النظرة البلاغية في الشعر أيضا من حيث اهتمامها بالبدیع الذي ظهر في الشعر كدراسة الشاعر والنّاقد ابن المعتزّ التي أشار فيها إلى مباحث عدّة كالتجنيس الذي مثّل له بيت أبي تمام (المعتزّ، 2012، صفحة 38).

جلا ظلمات الظلم عن وجه أمة ** أضاء لها من كوكب الحقّ آفله

و من النّقاد من يهمل هذا الجانب البديعي عند تعرّضه بالنّقد لنصّ شعري أو نثري والحكم عليه ظلّا منه أنّه جانب لا يقدّم ولا يؤخّر كثيرا في الحكم على جودة التعبير وحسن أدائه للمعنى بكلّ ظلاله .

ولكنّ دراسة أصول هذا العلم والأناة في تفهّمها وتدوّقها جديرة بإقناع الدّارس أيّا كان بأنّ استبعاد الجانب البديعي عند الحكم على عمل أدبي هو إجحاف به وانتقاص في الحكم عليه .

حقّا لقد أسرف الشعراء والأدباء في العصور المتأخّرة في استعمال المحسنات البديعية، إمّا إعجابا بها وإمّا إخفاء لفقرهم في المعاني، وبهذا انحطّ إنتاجهم الأدبي، وذلك هو سبب العزوف عن هذا العلم من جانب بعض الدّارسين والنّقاد المعاصرين، ولو عرفوا أنّ العيب ليس في البديع ذاته وإنّما هو في سوء فهمه واستخدامه لقلّلوا من

عزوفهم عنه ولأعطوه حقّه من العناية والدّراسة، ولردّوا إليه اعتباره كعنصر بلاغي هامّ عند تقييم الأعمال الأدبيّة والحكم عليها (عتيق، د ت)، صفحة 08).

ويمكن اعتبار النّظرة البلاغيّة للشّعر القديم منسجمة مع رؤية النّقد الأدبيّ في كثير من جوانبه كما هو الحال في مدرسة الطّبع لدى شعراء الجاهليّة والعصر الأمويّ، ومذهب الصّنع كما هو الحال في شعراء أبي تمام، ومذهب التّجديد والتّحرّر كما في شعراء أبي نواس ومسلم بن الوليد، ومذهب البديع كما في شعراء ابن المعتزّ، ومذهب الحكمة والفلسفة كما هو الحال في شعر المتنبيّ وأبي العلاء .

خاتمة :

من العلامات الفارقة للنّقد البلاغي للشّعر القديم هو الوصول من خلاله إلى تمييز واضح للشّعر الحقيقي عن غيره وتصنيف الشّعراء المتميّزين عن غيرهم، انطلاقاً من السّلم الطّبقّي حسب تفاوتهم في الجودة أداء وضعفاً، إذ تمخّضت الآراء النّقدية البلاغيّة في مجملها على جعل الشّعراء مراتب عبر العصور الأولى من خلال ما يلي :

في الشّعر الجاهلي يأتي امرؤ القيس والتّابغة الذّبياني وزهير بن أبي سلمى في الدّروة.

ثمّ في صدر الإسلام يأتي أصحاب الشّعر العذريّ وهم قيس بن الملوّح وجميل بن معمر وكثير عزة وعمر بن أبي

ربيعة .

ثمّ في العصر الأمويّ يأتي شعراء النّقائض في الدّروة من الإبداع الشّعري، وهم جرير والفرزدق والأخطل .

ثمّ في عصر بني العبّاس يصنّف الشّعراء كما يلي :

في الطّبقّة الأولى : بشّار بن برد

وفي الثّانية : أبو نواس ومسلم بن الوليد (صريع الغواني) .

وفي الثّالثة : أبو تمام والبحثري وابن الرّومي وابن المعتزّ.

في الرابعة يأتي المتنبي وأبو العلاء المعري .

وقد كان المتنبي كذلك لأنه شاعر معان بحق وليس شاعر لفظ وتخير قوالب شاعرية، فهو كما قيل عنه (

ينطق عن خواطر الناس) لهذا راج شعره كثيرا وصار جزء غير يسير منه مثلا سائرا عبر العصور .